الأزهر من ملجأ للكسالى والمعدمين، الى موقع ثقافي، عندما أدخل على مواده القديمة وكتبه الجامدة، علوم الحساب، الهندسة، الجبر، الجغرافيا والتاريخ، لأول مرة. وقاد داخل الأزهر وخارجه، حملة تحرير الدين من الشوائب. فساند دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة*، وأجاز لبس القبعة للمسلم، وصحة دفع الفوائد من صندوق التوفير، وأصدر فتوى بعدم تحريم التصوير.

وعلى قاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»، رفض محمد عبده تعدد الزوجات، مشيراً الى الآية القرآنية «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم»، والى الظروف التي نشأ فيها هذا النظام، وبخاصة على يد من احتكروا الرئاسة والثروة في العصر الجاهلي.

ومايز محمد عبده بين الاسلام والاستسلام فأكد، في جريدة «العروة الوثقى»، أن من أسباب حفظ الأمة «الاتحاد وعدم الاعتماد على الأجنبي والشورى». واستكمل في جريدة «المنار» دعوته، معتبراً أنه من سمات الأمة الصالحة الا «تقبل الأمراء والحكام الفاسدين الظالمين، بل تسقط بهم، اذا نزوا على مصالحها وتُولي الخيار»[٩].

آنذاك، كانت مصر تقدم ممثلها الجديد، الزعيم مصطفى كامل، كبطل للدعوة الاستقلالية. ورغم التفاوت بين زعيم البرجوازية المصرية الناشئة، وبين الخديوي توفيق، الحاكم بحراب الانكليز، وممثل الاقطاع والأرستقراطية العائلية، فان القاعدة التي شرعها الخديوي وقف فوقها مصطفى كامل، وامتدت، من بعده، الى محمد فريد وسعد زغلول. فالكل حرص على استبعاد العنف الجماهيري والكفاح المسلح كطريق لمجابهة الاحتلال، ولجأ مصطفى كامل وورثة نهجه، الى الاعتماد على الصراع بين الدول الاستعمارية الأوروبية، ومحاورة الاستعمار بأسلوب سلمي، يعتمد المناظرات الكلامية «من خطب، مؤتمرات، ندوات، مقالات، أشعار، رسوم وصداقات مع مؤلفين وكتاب»[١٠].

هكذا تتلمذ عز الدين القسام على يد الشيخ محمد عبده، وعلى يد دروس عصره في مرحلتي هزيمة عرابي وأساليب مصطفى كامل. فوجد في الأول الثائر والمصلح الاجتماعي، لا الأداة الميتة في العمة والقفطان. ووجد في دروس عصره، ما أبعده عن قيادة الأفندية و«البكاوات» وأساليبهم في النضال. وهي الدروس التي طبقها في شمال سوريا عبر الثورات المسلحة.

ومما يروى عن القسام، في هذه المرحلة، أنه عانى وزميله عز الدين التنوخي، من انقطاع المصاريف، ونفاد ما بحوزتيهما. وفقد التنوخي الأمل بامكانية الخروج من المأزق، وظل يحاور القسام، عما يفعلانه، فاقترح القسام قائلاً:

ـــ سنعمل هريسة ونبيعها للطلاب!

فاستفظع التنوخي الأمر، وفي محاولة للتملص قال:

(*) قال الشيخ رفاعه الطهطاوي (١٨٠١ ـــ ١٨٧٣)، في كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين»، ان العمل «يصون المرأة، عمّالا يليق، ويقربها من الفضيلة». ودعا المرأة، عند اقتضاء الحال «أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال، على قدر قدرتها وطاقتها»، وحض النساء على التعلم ليشاركن الرجال في «الكلام والرأي». وبذلك استحق لقب أول داعية لتحرير المرأة في القرن التاسع عشر، في مصر.